قرصان بين أسنانه منشار

ليليان

معًا إلى الأبد في نعيم الجحيم

فوق عشب الملل تململت ممل . . فضجر منها الملل وتحول إلى قرصان بين أسنانه منشار . وبغل نشر أيامها ونثرها في الفراغ . فيملل جمعت أشلاء أيامها ، وبملل دفنها في تراب الأيام . . فيئس الملل من فراقها ، وانتحر على بابها . . فانتظرت بملل أن يزورها شبح الملل .

عمره الإيمان بطوفان نوره . فعاد تولستوى إلى الكنيسة . وصلى وصام ، وزهد في الدنيا ، وتحامل سونيا ، وأمسك عصا الحجاج ، وزار أديرة روسيا وناقش وجادل رجال الدين في نصوص الإنجيل ، ولم ترق له تفسيراتهم . وشيئا فشيئا ثار على تعاليم الكنيسة ، واتهمها بخيانة رسالة المسيح . . وأعاد كتابة الأناجيل الأربعة ، وأضاف إليها إنجيل تولستوى . ثم سافر إلى سمارا في صيف ١٨٨٩ لإراحة عقله من عناء التفكير . وأكل قلب خروف ، وانتابته نوبة حنان زوجية سرعان ما تلاشت عند عودته إلى سونيا وإلى عزلته .

دموع من زئبق

ظل فترة وسونيا تلح على زوجها ليوافق على ترك الريف والإقامة في موسكو من أجل أولادهما . فلا يمكن أن يواصلوا تعليمهم إلى ما لا نهاية في الريف مع مدرسين خصوصيين . وقد تناقشت معه مائة مرة . ألف مرة ، مليون مرة . وأخيرا قبل سفره إلى سمارا حلح عليه عقله ، ووافق على انتقال القبيلة بأكملها إلى المدينة . فسافرت سونيا رغم حملها ومتاعبها بطيا إلى موسكو واستأجرت بيتا مفروشا لائقا .

وعند عودة تولستوى إلى عزلته وجد بيته مقلوبا رأسا على عقب . الكل يتأهبون للرحيل . الخدم يعدون البيادات ويرصونها في الحقائب . الأولاد يضحكون ويتهامسون بمرح ، ويتقافزون بخفارة فوق الحقائب . سونيا تجرى وبطنها أمامها من حجرة إلى حجرة . الكل متفولون عنه . لا أحد يمس بطاقاته . لا أحد يسمع تأوهاته . لا أحد يراه وهو يجر رجليه عجزا . في الحديقة ، وبودع اشجارها شجرة شجرة ، كما لو كان لن يراها أبدا . ويوم عيد ميلاده لم يقل له أحد ، كل سنة وأنت طيب ، . لا سونيا ولا أولاده . . فلم يعد فقط هو الذي هناك بعيدة . وأطفأ معه ثلاثا وخمسين شمعة . ثم سجل أسماء في يومياته وكتب : ٢٨ أغسطس ١٨٨١ : إلى حزين . لم يذكر أحد من أفراد أسرتي عيد ميلادي . أحس برغبة في البوح . . أحقا نسيت سونيا عيد ميلاده ، أم عمدا تجاهلته ؟ الأرجح أنها تذكرته ثم نسيته عمدا . لبكرى هو الآخر بدأ النسيان . قليل أيام معدودة . وفي يوم ٢٢ أغسطس بالذات كان عيد ميلادها السابع والثلاثون . ونسيه .

وفي منتصف شهر سبتمبر انتقلت الأسرة إلى موسكو . إلى مسكنها الجديد . البيت واسع ومفروش بذوق وفن ، ولكن جدرانه لا تكلم مرا أو صبرا . فهي جدران زنانة وبغاظ . واختارت سونيا أربع وأجمل حجرة لتكون مكتبا لزوجها . ولكي يعم بالسكون المفقود أمرت الخدم بأن يمشوا على أطراف أصابعهم . وعلمت أولادها في الهمس والوشوشة . فرق تولستوى الصمت المفروض حوله . ورزم وزمجر بأعلى صوت . وأنهم زوجته بأنها تكرهه . فوكلت محبته محاميا كان يدعى لكانت فكرت في راحة نفسه قبل راحة جسده ، ولكانت اختارت له حجرة صغيرة وقذرة وعارية لا هذه الحجرة التي كل متعلقاتها بكل لإدخال السعادة في قلب فلاح . فيئس متعلقة واحد تبكي شراء بقرة أو حصان . وسالت دموع من زئبق على خديه فلم تمسحها سونيا بمنديلها ، إنما أحضرت ميزان الحرارة ووضعتها فيه . وقاست درجة حرارته فوجدتها ٣٧ درجة تحت الصفر . فأشعلت نار المدفأة . وتركته يبكي على القر والفخفخة التي يعيش فيها .

وعزم أفراد دفة البيت . وساعدت أولادها على الاستقرار في حياتهم الجديدة . والتحق صبيح (١٨ سنة) بجامعة موسكو . وقيدت تانيا (١٧ سنة) اسمها في مدرسة خاصة للبنين . فيما تهوى الفن . أما ايليا (١٥ سنة) وليون (١٢ سنة) فقد فكر أبوهما في أول الأمر في إدخالهما في مدرسة حكومية . ولكن حينما طلب منه ناظر المدرسة أن يضمن له كتابة حسن سلوكهما . رفض رفضا باتا أن يتحمل هذه المسئولية . وساءل بدهشة : « كيف يستطيع شخص أن يضمن سلوك شخص آخر غيره ؟ » . ووضع ابنيه في مدرسة خاصة غير مطلوب فيها من أولياء الأمور أن يكونوا مسئولين عن سلوك أبنائهم .

وكلما لمح تولستوى سعادة من حوله تحاميهم الحديدة أزداد بعضه للمدينة وزيفها وأكاذيبها . وكتب قائمة بتعاسة . ١٥ أكتوبر ١٨٨١ : مر شهر على انتقالنا إلى موسكو . أمرا أشهر في حياتي . الكل يسقرون . حتى سيجيلون ؟ . باقم من نعناء يلعلون كل شيء في الحياة لأن الآخرين يعطونه ويتسولون أن يعيشوا . المدينة ؟ حجر ونتانة وعفونة . وواقعية وتزوير وتعور وفسق . . الأغنياء اللصوص يهيوا الشعب . وأنعموا في الملذات والحكومة والجيش والشرطة لا هم لهم سوى حماية عربدتهم . . .

في الريف الروح الخضراء والذهبية . وسنابل القمح . والشجار العابة تستر هل الفقر وتحجبه عن العين . أما في موسكو فلا يمكن تجاهل هذا النظام الاجتماعي . . فالبؤس مذموم ومركز ومكدس ومحكوم في مكان واحد . ولا بد أن يراه الغير حتى إن كانت عيناه . فهو كانتزاع على الحرية . ومن يأكل حتى الشبع في هذه المدينة مذنب . وأحس تولستوى بالذنب لأنه يأكل في أطباق من الخزف الصيني منقوشة عليها الحروف الأولى من اسمه . ويملأ بطنه بشتى ألوان الطعام . ويدفأ على فراش وثير . ويجلس على مقعد مكسو بالحرير وينتى وهو قاعد سجاد عجمي وفوق رأسه لمبة بلور . ويخدمه خدم بصدريون أحمر وقفاز أبيض .

وارتفع أنينه وملأ البيت . وخطى على أنين الكنيسي الطفل الحادي عشر الذي أنجبته له سونيا يوم ٣٠ أكتوبر ١٨٨١ .

وتجرد أن استردت سونيا صحتها فرغت لأطفالها . وخاصة ايليا دولايا بالقسمين الشقاء والدلال . فوقفت في صحة البيت أبيا على المسارح ودار الأوبرا . وفتحت أبواب بيتها كل يوم خميس لاستقبال الأمراء والأميرات وكل حامل الألقاب . واضطر تولستوى رغم أنفه الكبير أن يجامل ضيوف زوجته . ويجلس معهم ، ويتحدث معهم ، ويبتسم في وجوههم ، ويطعمهم في صبره . ولكنه رفض بعناد أن يرتدي بدلة وقميصا ياقة منشية ، ورباط عنق يخنق رقبته . فهو يتمسك بقميص الفلاحين الرمادي غاما كما يتمسك عجائز . فاقنعته سونيا بصوت رمادي ديلوماسي وبدموع تماسيح رمادية . أن يجرب مادلته حياته ببدلة من أجل سواد عينيها ، ويرتدي قميصا من الساتان الحرير الأسود . فوافق .

وأكمل تولستوى عذابه الحريري الأسود شهرين ، ثم هرب منه وعاد إلى الريف وإلى عذابه الأخضر . وإلى تأملاته الفلسفية والدينية . فرمت إليه بجناب حادمته العجوز أجانا وقالت له مرحلة : « الكونت يجلس هنا يبدو يتأمل السماء والنجوم وتسبح خلجه . ويترك الكونتسة وحدها هناك مع عناية أطفال فوجئه صغيرة وخوفا خفيفة . وكتب إلى سونيا يوم ٤ فبراير ١٨٨٢ . « كنت عجاعة إلى الريف ليذوب جليدي النفسي ، وأفكر بهدوء في الطريق الذي يجب أن تسلكه البشرية للخلاص من عذابها وتعاستها . أنت تعرفين كم تألمت في موسكو وأنا أرى الفقر والبؤس والشر والرذيلة . . »

فردت عليه سونيا عكسها الأنثوية . « بدأت أعتقد أن الرجل السعيد حيا يفتح عينا لترى الوجه القبيح للحياة . ويغمض عينا كي لا يرى وجهها الحسن . فهو مريض . يجب أن تعالج نفسك . أقول لك هذا حتى لا تأتي هذه هي الحقيقة . أكنت تجهل حتى اليوم أن في الدنيا فقراء وبؤساء ونساء ومرضى وأشرارا ؟ . . افتح عينك المغمضة وانظر جيدا حولك . سوف ترى أن في الدنيا أيضا أناسا طيبين ومعطاء ولا يطرق المرض بابهم فليساعدك الله ! . يؤسفني أن أساعدك ، ولكن كيف ؟ . أنت لم تعد بحاجة إلى حبي الآن . وبالتي أعرف ما تحتاج إليه الآن ! . »

واعترفت صرخة حب سونيا أذنيه . وحدثت نفسه . فكتب إليها عنوان مذنب : « لا تقلقي على ولا تلومي نفسك . لم أعد أعرف لماذا كنت تعيسا وأنا معكم . سونيا حبيبتي لا أستطيع أن أعيش بعيدا عنك . . إلى حاجة مطلقة إلى وجودك . . قولين . أحبك ولكنك لم تعد بحاجة إلى حبي . . أنت محقة . فأكثر ما أحتاج إليه الآن هو حبك . . بل معادلي الوحيدة في الدنيا هي حبك لي . . »

واستمر الخطاب بالمراسلة . ومن آن لآن كان يذهب تولستوى إلى موسكو ليرى زوجته وأولاده ويمضي معهم يومين فقط لا أكثر .

سحب الحقد

وفي أوائل الصيف اجتمع شمل الأسرة في الخريف وغربت شمس الحنان . وتراكمت سحب الحقد . وأحس تولستوى أنه غريب وسط أفراد قبيلته . وارتحل برحا ووحشة . سونيا إلى جواره ولكن المسافة بينه وبينها مقدار سنة ضوئية . ولا توجد وسيلة اتصال بينهما . لا لغتا لغته . ولا لغته لغتا . لا هو يفهمها ولا هي تفهمه . وكل منهما يلوم الآخر لأنه لا يفكر مثله . هو يتهمها بالجنون لأنها تضحك في وجه الدنيا ، وهي تتهمه بالجنون لأنه يعبس في وجه الدنيا ، ويجب الكون كله وما فيه وفيها عليه . ولا يحب أبناءه الذين هم من لحمه ودمه . ولكن كيف يحبهم وهم وحوش بلا ألقاب يقضون يومهم في عيد الأراب واللعب . أن أبناءه الحقيقيين هم الذين يؤمنون بمبادئه ولا يخطون خطوة أو يحركون ساكنا بدون استشارته .

أو مرضعا ولا يؤذون الحمار أو الحصان بشعة كرياح

إنه منذ شهر فصل الموت حوفا على ظهر حصان من أولاد كرياح كان يترعه في غرة الشتاء التي يجرها حصان ، مع صديقه سيوتيف راعي الغم العجوز الحكيم ، الذي اعتنى بإذلته ، واعترف بها الحصان من الطريق ، ولم تمد يده ولا يد صديقه إلى الكرياح ، وسقط الحصان في حفرة ووجدا نفسيهما ، وأعضاؤهما تحت وأرجلها فوق . هذا العجوز الحكيم هو الذي لاسترح أولادنا ، ونسي تولستوي أنه بالأمس القريب كان يناهض بأنه صياد ماهر ، ويتعالى على كل من لا يجعل فوق كفته بندقية .

وفجأة ارتفعت درجة حرارة إيليا وبلغت أربعين درجة وهرب الدم من عروق سونيا ، وتجمد الدم في عروق تولستوي . وجلست سونيا بين يروده . إنه يجلس كتمثال من الحجر على مقعده لا يأتي كأنه حجر ما تحدث حوله . . بموت ابنه . . تموت زوجته . . لا يتحرك . وجاء الطبيب وشك في أن يكون إيليا مصابا بالتيفوس . وجلست سونيا إلى جواره وأعطته أقراص الكينين التي وصفها الطبيب . وجاء الليل ولم تنخفض درجة الحرارة . ولم يكلف أبوه خاطره بالسؤال عنه . وفقدت سونيا أعصابها وانفجرت في زوجها وقال إن وجوده في البيت كعدمه . فهو لا يفعل شيئا . ولا يساعدها في شيء ولا يبالي بشيء . ولا يهتم بأحد سوى نفسه . وابيض وجه تولستوي من الغضب وصرخ في وجهها : « أعز أمنية لي أن أهرب منك ومن أولادك » .

ثم دخل حجرة مكتبه وصفق الباب في وجهها . ولم أن يمضي ليلته البيضاء على الديوان الجلد .

وبلغت سونيا دموعها . فانحنت . . فتحت صندوق أحزانها . . فسالت منه دموع ودموع ودموع . . وغسلت أنهار الدموع خدودها ولم تفصل أحزانها . إنه يكرهها . إنها تعبده . . ما العادة ؟ . . أن تصل من أجل سلاسل من نار تقيدنا وتحرقنا . إنه معبودها ومعذبها . العذاب يجري في دمها . النار تجري بين جلدها وعظامها . أيتحملها عذابها كما تتحمله هي ؟ . النار تأكل قلبها وتسلخ جلد ظهرها . أهذه هي ضريبة الحب ؟ . . يريد أن يهرب منها . . إلى أين ؟ . . إلى أصدقائه القدماء . مستظهم كلهم وتقتله ثم تقتل نفسها . . الموت أرحم لها من بقيته لها . لا حياة لها من غير حبه لها . كيف تبت له أن سلاسل النار التي قيدها بها منذ عشرين سنة هي هي لم تتغير . تحد اليوم بنفس نار الحب التي أحبته بها في أول يوم . أتخلع عينها وتلقيها في النار ، وتقطع بسكين جزار عضوا ، وتضع عينها المقتلعة على عضوها وتقدمها له لتبرهن له على حبها له ؟ . ألا يشفق عليها ؟ . ألا يرحم عذابها ؟ . ألا يعرف أنها تنتظره ؟ . لماذا لم يخرج من مكتبه حتى الآن ؟ . . « أعز أمنية لي أن أهرب منك » . قالها في لحظة غضب . . ومن يغضب يجرس عقله ويصرخ قلبه . والقلب لا يكذب أبدا . أبدا لن تنسى صرخة قلبه الخالصة التي مزقت قلبها . يهرب منها ؟ . . لا لن يهرب منها . سيأتي إليها . إنه مقلب . يوما يكرهها ويوما يحبها . يوما يريد أن يهجرها ويوما يريد أن يلازمها كما يلازم اللحم عظامها والعروش جفونها .

وقهر الفجر الليل . وانتهت ليلة سونيا البيضاء . وتركت تولستوي مكتبه ، وتسلل إلى حجرة نومه . ووجد سونيا في انتظاره . وكلمة قاطعة قضت قبلته . وفي الصباح انخفضت درجة حرارة إيليا ، فلم يكن مصابا بالتيفوس . وفي اليوم التالي احتفلت الأسرة بعيد ميلاد تولستوي الرابع والخمسين .

وبعد أسبوع تركت تولستوي سونيا في الجزيرة وذهب إلى موسكو في صحبة ابنه سيرج وإيليا . فقد اشترى قبل أربعة شهور بيتا أعجبه ، ودفع فيه سبعة وعشرين ألف روبل . والبيت لا يقع عاما في أحد الأحياء الراقية في موسكو . إنما في ضواحيها حيث يعيش الفقراء . فالقرب من البيت يوجد مصنع للجوارب ، وآخر للحطب ، وثالث للغزل . وحديقة البيت هي التي أغوت تولستوي بشرائه . فمساحتها فدانان ونصف فدان تقريبا . وبها أشجار زيزفون وتفاح وكرز وعنب . والبيت نفسه مكون من دورين وخمس وعشرين حجرة في حاجة إلى عملية تجميل وترميم . وفي الحوش بئر ماء . فلا يوجد في البيت ماء جار . ولهذا لا يهم . فقد تعودت القرية التولستوية على ذلك في الريف .

إن الرجل الذي يطالب الأغنياء بتوزيع ثرواتهم على الفقراء . اشترى بيتا وأي بيت . والرجل الذي يحتقر الأمور الدنيوية أشرف بنفسه على عمليات ترميم وتجميل وزخرفة بيته ؟ . فهذا هو تولستوي . وبالفعل تولستوي المهندس في كل صغيرة وكبيرة في البيت . . وراقب العمال حتى لا يضحكوا على ذقنه ويطلوا الجدران بلون أكثر أو أفتح درجة من اللون يريده . وجرى من محل إلى محل لشراء ثلاث بيته ، واختار الخشب الأكاجو لأنه خشب الفضل . وكتب كل يوم تقريرا إلى سونيا .

١٢ سبتمبر . أخبرني المهندس اليوم أن البيت لن يكون جاهزا لاستقبالكم قبل أول أكتوبر . أبواب ونوافذ الدور الأول لم يتم طلاؤها بعد .

١١ سبتمبر . جف طلاء سقف وجدران حجرة الطعام . وورق الحائط في الحجرة الجديدة فاتح جدا . ولي حجرة الصالون داكن جدا . أما في حجرتك فلونه رائع .

٢٨ سبتمبر . الدرابزين السلم الداخلي جميل جدا ولكن الفضلات ضاعفة ومن الممكن أن يسقط منها طفل . سوف أقول ذلك للمهندس غدا .

وهكذا كل رسالة يلاحظ وعتب .

وفي أول الأمر انتبست سونيا وهي تقرأ تقارير زوجها . ثم قبلت استسلاما . وثارت عليه وعلى رسائله التي تقتصر إلى كلمة حنان وكتبت إليه « أنت لا تهتمني إلا عن الأشياء المادية . أتظل أبني من خشب ولا أهتم بغير الأرضيات الخشب ؟ » .

سيمفونية الملل

وأخيرا في يوم ٨ أكتوبر فتح البيت أبوابه ونوافذه واستقبل بالأحضان القبيلة التولستوية المكونة من تولستوي وسونيا . وابنتيهما تاليا وماشا . وأبنائهما الستة وأتباعهم . الذين عشر خادما . وطباخ خاص للأسرة وطباخة خاصة للخدم . وأعجبت سونيا

بشرفة زوجها ولم يهرب تولستوي منها هذه المرة . وبقي إلى جوارها وقضى بعضه للمدينة .

وكل صباح كان يستيقظ تولستوي في الساعة السادسة . ويقوم بأداء بعض التمرينات الرياضية . ثم يغتسل ويرتدي زي الفلاحين . ثم ينزل إلى الحوش ويتوجه إلى بئر الماء ويملأ بنفسه دلوا كبيرا . ثم يضعها على مرتفع صغير ويخرجه حتى الطبخ ثم يعود إلى حجرته وينظفها بنفسه . ثم يجلس في الشرفة وينظف ويلمع بنفسه حذاءه الوحيد . وهو سعيد وفخور بأن في بيته التي عشر خادما . ومع هذا فهو الذي يخدم نفسه بنفسه . . وبعد تناول الفطور مع أسرته كان يأوي إلى مكتبه ولا يخرج منه إلا لتناول الغداء في الساعة الثانية عشرة . ثم العشاء في السادسة مساء . وحجرة مكتبة صغيرة وتقع في الدور الأول . وجدرانها مطلية باللون الأخضر الباهت . وعلى يسار الباب مكتبة في مواجهة النافذة ليصل عليه بأوراق أشجار الزيزفون فيخضر عقله . ورغم أن فوق مكتبة شمعدانين من البرونز فلم يكن يضيء سوى شمعة واحدة لتسع أركان الحجرة في الظلام . ورغم أنه كان قصير النظر فلم يكن يستخدم نظارات ويفضل أن يشير لرجل مقعده ليقرب أوراقه من عينيه . وكان يجلس من الخلوس ولا يتعب من الكتابة . وكما تعب من مقعده كان يقف على قدميه ويواصل الكتابة على رف كبير مثبت على الحائط خصيصا لهذا الغرض . وإذا تأوهت رجلاه من التعب وتوسلتا إليه أن يريحهما كان يجلس على ديوان من الجلد منثورة عليه وسائد من الحرير ويضع رجليه فوقه . ويواصل الكتابة أو يقرأ ويدون ملاحظاته . ومن حوله مئات الكتب المكدسة فوق أرفف مكتبه في انتظار إشارة منه لتسقط بين يديه ويتناجيه بلغاتها اللاتينية أو الفرنسية أو الإنجليزية أو الألمانية .

وفي المساء كان يتناول شاي الساعة التاسعة مع سونيا وأولاده في حجرة الشاي التي يتصدرها بيانو . ومن آن إلى آن كان يجلس إلى جوار سونيا ويعزفان معا مقطوعات موسيقية لشوبان أو بيتهوفن .

ثم يواصل هو في وكره عزف سيمفونية يأسه . وتواصل هي في وكرها عزف سيمفونية ملها . فاليوم كالأمس كالغد . يمل تسلق في الصباح . ويمل التمطر وتتغدى وتتعشى . ويمل ترضع طفلها . ويمل تساعد أولادها الصغار في دروسهم وواجباتهم . ويمل تفصل وتخيط قمصانا لزوجها . ويمل تشتغل بفوقات تريكو لأولادها بغيرة الملل . ويمل تطرز مفارش بغيرة الملل . ويمل تاسي نفسها . ويمل تنتظر كلمة حنان من زوجها . ويمل تنتظر أن يكتب قصة . ويمل تتململ فوق عتب الملل ومن حولها أوراق النهار البيضاء .

ويمل استقبلت آخر بدعة لزوجها . هيامه باللغة العبرية واصراره على أن يعلمها كي يقرأ التوراة والإنجيل بالعبرية . وتفضل الخاخام مئير مدرسه بدأ يصدع رأسها بالكلمات العبرية والمثالثات اللاهوتية مع أساتذه الخاخام . وسونيا زوجت أدبيا لا علاقة باللاهوت . تزوجت رجلا لا قديسا . وتعرف أنها تعلم أن تكون زوجة لرجل ولا تصلح أن تكون زوجة لقديس . وتخشع وتصيرة كنيت إلى أحبها قالبا : « ليون عشي أمام الجمهور ويمشي له الطريق الذي يجب أن يسلكه . . وأنا جزء من الجمهور أعيش معه وأتمنى إليه . وأرى معه النور . وأقر معه بأن ليون هو النور . ولكني لا أستطيع أن أسير الجمهور وأمشي أمامه إلى جوار النور . . فهناك أشياء كثيرة تمنعني من الانطلاق إلى الأمام . أولادي والوسط الذي أعيش فيه . وعاداتي . »

ويمل احتفلت سونيا مع زوجها وأولادها برأس السنة . ويأس وفلسفة كتب تولستوي . « أول يناير ١٨٨٣ . نحن نعيش إذن فنحن نموت . أن نعيش بطريقة حسنة معناه أن نموت بطريقة حسنة . أتمنى لي وللجميع في السنة الجديدة أن نحسن موتنا » .

ويمل واصلت سونيا العزف على ناي الملل . ويأس واصل تولستوي العزف على ناي اليأس . ولكن هذه حكاية أخرى يطول شرحها .

□